

في الأدب الفري

في الأدب الروسي

تولستوى

ناحية من نواحي فلسفته

طفل خجول نفور من الناس ، لكنه رقيق المشاعر شديد الحس جياش العاطفة . ثم جنـدى يحارب في سبيل الوطن . مستهتر متهتك مبالغ في الاستهتار . وهو ملحد مغرق في الالحاد ساخر بالدنيا . ثم هو كهل شديد الايمان قوى الثقة في الحياة . وأخيراً تتمخض حياة الروائى الكبير عن شيخ يعتزل ثروته ويترك المدنية بكل زينتها وخداعها ونفاقها ليعمل جنبا إلى جنب مع فلاحيه ، وليفيض قلبه حنانا على الانسانية المعذبة . وليصبح شخصية خالدة على مر الدهور .

هكذا كان تولستوى وهكذا كانت حياته .

ثم فلسفة قوية مليئة بالحياة هي فلسفة الايمان والعاطفة ، وعاطفة قوية صريحة يدعمها العقل ، ويجرّكها التأمل ، ويفيض عليها الالهام نورا وعمقا .

هكذا كانت فلسفة تولستوى .

فلن تجد في فلسفته هذه المشكلات المنطقية ، وهذا اللغ والدوران وهذا التكلف والعمل اللذان تجدهما في كثير من الفلسفات . بل لم يحاول تولستوى مرة أن يضع كتابا في الفلسفة أو يجمع آراءه في صورة مرتبة منمقة .

فلسفته في شتات رواياته التي تتجاوز العشرين . وهي في شتات أشخاص هذه الروايات التي تعبر كل واحدة منها عن ناحية من نواحي المؤلف نفسه: عن شك أو سخريته ، عن ايمانه أو الحاده . ولذلك ففلسفته محبة الى النفس . يقدمها في لون من أشهى الألوان الى القلب : في صورة قصة أو في صورة ذكريات . وهو لم يكن يكتب ليرتزق من وراء كتبه كمعظم الروائيين .

ولم يكن يكتب ليضحك من الناس أو يسخر منهم كما فعل أناتول فرانس . بل كان يكتب معبرا عن عاطفة قوية أحست بالحياة ، وشكت في الاله ، ثم آمنت به من بعد شك . ثم اعتزت بالحياة من بعد سخرية .

وهو لم يبحث في الاله وصفاته ، أو في الروح وطبيعتها ، أو في الجسد وعلاقته بالروح ، أو في الزمان والمكان ، أو في ترتيب الخلق والموجودات ، أو فيما شابه ذلك من أمهات المسائل التي تشغل بال الفلاسفة . بل كانت فلسفته من صنف آخر لا يقل جودة ولا ينقص عظمة ولا عمقا . حاول فيها أن يخفف من آلام الانسانية وعذابها ، وأن يرشد الفرد والجماعة إلى الطريق السوى . وأن يرسم لها مثلا أعلى يعملان من أجله . فلسفة بحثت في جميع أمراض الانسانية فشخصت الداء وبينت مواضع الضعف . ثم أخيرا أرشدت إلى أنواع العلاج .

وقد عالج تولستوى سعادة الفرد وكيف يمكن تحقيقها ، ووصف عيوب المجتمع الذي نعيش فيه . وبين سخافاته ومتناقضاته والطريق الى علاج هذه المتناقضات . وبحث في الدين والعلم والفن وأخيرا في كل ما يمس المجتمع الانساني وما يتصل بافراد هذا المجتمع بسبب .

وسنحاول في هذه العجالة أن نطلعك على ناحية من نواحي فلسفته . ناحية حاول فيها أن يرسم للفرد مثلا أعلى . وأن يهـج له الطريق إلى السعادة التي ينشدها .

كل منا قد تسأل ما الحياة وما قيمتها ؟ ولماذا نحياها هكذا ؟ أخلقنا لنشقى أو عشنا لنموت ؟

وكل منا مرت به ساعات من السخط على الحياة أو الابتسام لها . لاندري لماذا نبسم ولماذا نسخط ؟

وكل منا يرغب في سعادة هادئة مطمئة ، سعادة لا يفوز ولم يفز ويظهر أنه لن يفوز بها ! ومع ذلك فنحن دائبون في العمل

لها . وهي دائبة في البعد عنا .
ومر بخلد تولستوى هذه الشكوك وانتابه هذه الخيرة وجرى وراء السعادة ، فأقبل يرتوى من منهل الحياة : يعربد ويتهتك ويتمتع بكل ما حرم ولد ، ونال من الحياة ما لم ينله غيره .
فهو من اشراف الروسيا ، له من المجد ما لهم ، وله من العييد ما يزيد على سبعمائة . وهو غنى في غير حاجة الى عمل يرهقه ، أو رئيس يخضع له ، والطبيعة وان لم تزوده بوجه جميل ، قد أعطته من جمال الروح ورقة العاطفة ما خفف من حدة قبحه ، وقلل من بشاعة منظره ، وتزوج فاخلصت له زوجته ، وتمتع بأشهى ما تصبو اليه نفس من وفاق عائلي وذرية صالحة

أتريد فهمها للحياة ولسر وجودنا فيها ؟ أتريد فوزا بالسعادة ؟ حسن ! فلنعمل ما تطلبه منا الحياة . ولننفذ مشيئة الله . وما غاية الحياة ؟ هي أن نعمل ونجيد ما نعمله . وليكن عملنا في سبيل الغير ، ولنضع بأنفسنا في سبيلهم ، ولنحبهم كما نحب أنفسنا بل أكثر مما نحبها . ولتعاون معهم ، ولنم جميع قوانا من عقلية وجسمية ، ولنحسن استخدامنا في خدمة الآخرين : التعاون ، الحب ، العمل ، ثالث مقدس هو سر الحياة وسر السعادة . ليمتد جنبا الى جميع أفراد الانسانية . ولنعمل لاخواننا في البشرية ، ولننس أنفسنا فنكون بذلك قد أدينا مهمة الحياة التي خلقنا من أجلها وفي هذا طمأنينة لنا وهدوء .

لقد أسأنا فهم الحياة . وحسبناها مسرحا لقتال دام يفترس فيه القوى الضعيف ، ويلتهم فيه الكبير الصغير . ثم اتهمناها بالقسوة وما هي بقاسية بل هي أعز شيء في الوجود وبحسبنا السعادة في هذا النضال السمج ، وبحسبنا الراحة في هذا القتال العنيف

بالغنا في الانانية ، أردنا الحياة لنا وحدنا ، أردنا مالا وجاها وحبا وبيننا لأنفسنا ولأنفسنا وحدها

والحياة لا تريد منا هذا ، فالفرد ذرة لا معنى له في الوجود دون غيره ، ذرة من أصغر ذرات العالم ، فاذا ما اجتمعت هذه الذرات واتحدت وتعاونت استطاعت أن تصل الى أقصى سعادتها وهي مستطاعة أن تنال جميع أمانها ، فاذا ما اختلفت وتناحرت وتفرقت أصبحت لا شيء . وهي واقعة في شقاء لا خلاص منه .
لقد ظننا بالحياة شراً ، وقد حاولنا أن نجعل من قانون سخيف

لها . وهي دائبة في البعد عنا .
ومر بخلد تولستوى هذه الشكوك وانتابه هذه الخيرة وجرى وراء السعادة ، فأقبل يرتوى من منهل الحياة : يعربد ويتهتك ويتمتع بكل ما حرم ولد ، ونال من الحياة ما لم ينله غيره .
فهو من اشراف الروسيا ، له من المجد ما لهم ، وله من العييد ما يزيد على سبعمائة . وهو غنى في غير حاجة الى عمل يرهقه ، أو رئيس يخضع له ، والطبيعة وان لم تزوده بوجه جميل ، قد أعطته من جمال الروح ورقة العاطفة ما خفف من حدة قبحه ، وقلل من بشاعة منظره ، وتزوج فاخلصت له زوجته ، وتمتع بأشهى ما تصبو اليه نفس من وفاق عائلي وذرية صالحة

ماذا يريد بعد هذا من أطايب الحياة ولذات المعيشة ؟ على أنه لم يفز بالأدل المنشود . ولم يظفر بالسعادة ولا بظلها ، بل كان يتنابه شعور بسخف الحياة وعبثها .
فهو إما ساكنة هادئة ، ولكنها مملّة جافة . وهي إما مضطربة هائجة ، ولكنها مؤلمة قاسية . وهي في كل هذا سخيصة من دون معنى ولا غرض ولا غاية واضحة . أيعتزلها كراهب ؟ ولكن انى له الخبز الذى يملأ بطنه الجائع ؟ وما قيمة حياة يعتزلها المرء ؟ وانى للانسانية أن تعيش اذا قدر لكل فرد أن يعتزل العالم ؟ وهل يجد الانسان في العزلة راحة وهدوءا ؟

أحيائها كما حيتها مئات الأجيال من قبله ، وكما ستحيها من بعده ؟ ولكن هذه سخافة لا تطاق . وما الذى يحمله على أن يتعذب ويتألم ويقاسى ليكون نعمة من نعاج هذا العالم يسمن ليذبح ، أو يهزل ليرض ويموت ؟ أيعتقد في حياة اخرى ليست هذه الدنيا الا مزرعة لها ؟ وما يكون اذن معنى الحياة ؟ أهى تجربة سخيصة ؟ وماذا يمنعنا من اختصار هذه التجربة ؟ ولماذا لا نسرع فنأتى على حياة بائسة لنذكر أخرى أسعد منها أو أقل منها سخفا .
وأخيراً ما هي السعادة ؟ وما الطريق اليها ؟ أهى ثروة وضياع وجاه ؟ ولكن تولستوى جربها فلم تبدد شكوكه ولم تشبع مطامعه بل أصابه منها ملل قاتل لا يدري كنهه ، وسأم مروع زهده فيها .
أهى درس وقراءة واطلاع ؟ ولكن تولستوى قرأ وقرأ أحسن ما انتجه بشر ، فلم ترضه هذه القراءة ، ولم تضع حدا لشكوكه ، وأخيراً ما فائدة الاطلاع والمعرفة والعلم ؟

ندعوه تنازع البقاء وبقاء الأصلح قانونا للحياة . فالأفراد في تنافس ،
والأمم في تناحر ، ومن هذا النزاع الدائم يتولد البؤس واليتم
والفقر والآلام ، وتتولد الانسانية عاجزة خادعة ماكرة ضعيفة
لنفس هذه الأحقاد مرة واحدة . ولنتعاون ، ولينس الفرد
انه خلق لنفسه ، وليجعل غايته خدمة غيره . خدمة أولاده ، خدمة
أفراد الانسانية جمعاء ، اذن يخف كل شقاء . وتعم السعادة الجميع .
ستقول هذا خيال شاعر وأمل فيلسوف .

ولكن تولستوى لا يقول لك ضح بنفسك لأن في التضحية
نبلا أو جمالا . وهو لا يقول لك كن خيرا لأن الجنة للخير
والنار للشرير . وهو لا يزعم أن في خدمة الآخرين قياما بواجب
لا تستطيع أن تفهم من فرضه عليك .

هو يقول لك أحب جارك واعمل لغيرك ، لأن هذا هو قانون
الحياة ، ولأنك لا تملك عنه محيدا ، وهو يقول ضح بنفسك لأنك
ستضحى بها مرغما إذا أبيت . وهو يقول لك سامح عدوك وأدرله
خدك الأيسر اذا أصاب منك الحد الأيمن لأن في الخلاف شقاء
لك وله .

وليس في هذا جرى وراء خيال أو مثل أعلى يضاف الى غيره
من الأمثلة العليا . ولكن جرب بنفسك . اقتنع بأنك خلقت
لغيرك وسترى أى سعادة تجلبها عليك هذه التجربة ، لن يخيفك
الموت بعد هذا لأنك ستري فيه افساحا للطريق أمام غيرك .
لن تعبأ بالآلام تصيبك لأنك ستري فيها تخفيفا لآلام اخوتك
من البشر .

أما إذا أبيت هذا ، وضننت بنفسك أن تكون ضحية
في سبيل الآخرين ، فكن أنانيا جشعا وابلغ المجد على اكتاف
الناس ، واجمع حولك من متاع الدنيا ما تسرقه وما لا تسرقه ،
ولكنك لن تكون سعيدا . وستظل شقيا بائسا ، ولن تشعر
براحة مادام لديك ذرة من ضمير . وستمنع الحياة في السخرية
منك ، تجعلك آلة لها تفند مسيئتها ، وستكون ضحية على
رغم أنفك ، وستعيش خائفا وجلال من الموت أو من خصم قوى
وسؤنك ، ضميرك ولا يلبث أن يضيق ما أنفقت حياتك من
أجله ، سيلتهم مالك وجاهك من هو أقوى منك ، أو لا تلبث أن
تموت ، فيتمتع به غيرك ، وبذا تكون الحياة قد انتقمت منك

شر انتقام .

وليس معنى خدمتك للغير أو تضحيتك بالنفس أن تنسى ذاتك
أو تعتبرها كملا مهما في الوجود . اذهى شرط من شروط
الحياة وشرط هام لا تستطيع الانسانية أن تتحقق بدونه ،
ولكنها ليست غاية الحياة ، وليس من أجلك وحدك قد
كانت الحياة .

وليس معنى هذا أن تكبت غرائزك أو تحمل بنفسك ما لا تطيق .
بل وجه نشاطك إلى ما خلق له . . .

في مثل هذه اللغة البسيطة الساذجة القوية يحدثك تولستوى .
ولا يضير فلسفة تولستوى ان تبدو شعرية عاطفية إذ هي
لا تكاد تخرج عما قالته الأديان . فالمسيحية ومن قبلها اليهودية ومن
بعدها الاسلام تبشر بما قال تولستوى . وكلها حضت على
التعاون وقالت أن المؤمنين اخوة وأحب لغيرك ما تحب لنفسك .
وكلها رفعت من شأن العمل للآخرين وكلها حضت على الايثار
وكلها امرت بالتقرب الى الله وحده وجعلت منه رمزا للوحدة

لم يأت بجديد . ولكنه أحب أن يثبت أن ما قالته الأديان
صحيحا ، وانه عمل ، وانه الطريق الأوحد الى السعادة الفردية والانسانية ،
وأحب فوق هذا أن يبين أن ما قالته الأديان ليس مثلا أعلى
يصعب تحقيقه ، بل هو الغاية التي لا محيد عنها ، والشئ الذي نعمله
كارهين أو راضين .

لقد رأى أن الحياة لا معنى لها في الافراد مشتتين . بل لا
يمكن تصورها الا في الافراد مجتمعين متعاونين . وقد رأى أن للحياة
غرضا بسيطا هو ان يلتزم الأفراد ويتحدوا . هو أن تجتمع
الذرات الانسانية لتصبح ذرة واحدة كبيرة ترجع الى خالقها .
وفي هذا الاتحاد كل سعادتها .

ولم ير الحياة الدنيا اعدادا للحياة أخرى كما ترى معظم الأديان
بل وجد فيها سلسلة لا تنقطع . فليس في موت الأفراد انتهاء
للحياة . بل موتهم معناه بقاؤهم في نسلهم ، ومعناه حلقة جديدة
قد تكون أحسن استعدادا وأكثر تضامنا .

وهو متقائل راض مطمئن على مصير الانسانية . فهي تسير
إلى الوحدة منفذة في ذلك مشيئة خالقها .

وهو يرى أن كل ما فينا أعد لتنفيذ غاية الحياة . ففينا حب

الطبيعة والانسان

لفيكتور هوغو

شمسُ هذا النهار قد غربت في أفقها خلف مكفهر السحاب
وغداً تعصفُ الرياح، ويأتي بعد ذلك الظلامُ داجي الاهاب
ويلي الفجرُ بعد ذلك مضيئاً مُرسلاً نوره خلال الضباب
فنهاري، فليلة — خطواتُ الدهرِ والدهرُ معن في الذهاب

سوف تمضي هذي الدهورُ جميعاً سوف تمضي معاً لغير مآب
سائراتٍ على جباهِ الرّوايِ ووجوه البحار ذات العُباب
ومياهِ الأنهارِ وهي جَواري لامعاتٌ مثل اللجين المذاب
وعلى الغاب وهو يدوي بأرواح الألى قد قُضوا من الأحباب

وستبقى وجوه تلك الأواذي وستبقى جباهُ تلك الهضاب
البوادي الغضون لا عن مشيب أو فتورٍ في غفوان الشباب
وستبقى بواسق الغاب ذات الـ خُضرة المستمرة الجلاب
سوف تبقى على الزمان جميعاً في شباب مجدّدٍ وتصابي
وستبقى الأنهارُ تحمل من تلك الرّبي ما تلقى به في العُباب

ذاك، أمّا أنا فما أنا يحني كل يوم رأسي ويوهن قاني
وقشعريرة البرودة تحت الشمس أمست تدب في أعصابي
وسأقضي نحي وشيكا سريعا وسط عيد الطبيعة المطراب
وسأمضي، فلا يضير مضيي ذلك الكون أو يحس غيابي
نخري أبو السعود

الحياة لنستطيع ان نحيا، وفيحاب النشاط والحركة وكره السكون
حتى تعمل. وفي الجانب الحيواني بكل غرائزه لنستطيع أن نعمل. وفينا
العقل لنفهم كيف تعمل والى غاية نسير، وفينا الضمير ليؤنبنا
وليحاربنا اذا ما حاولنا الحياد عن الغاية المرسومة لنا. وفينا غريزة
النسل لتخرج ذرية أقوى تستطيع أن تتمم ما تريده الحياة اذا ما
ضعفنا أو متنا.

يعد تولستوى الشفاء الذي نشعر به نتيجة طبيعية لمخالفتنا
ضمايرنا التي تفهم وحدها الغرض الوحيد من الحياة. وتنبهنا
كلما حدنا عن الطريق المستقيم، وهذا الشفاء داع الى تفكيرنا في
أنفسنا. والى شعورنا بالحياة وغرضها.

ويعلل تولستوى الحيرة والقلق اللذين يستوليان على المرء بأنهما
نتيجة لأهماله واجبه المقدس في الحياة، واغفاله العمل، أو لمقته
الآخرين وترك معونتهم. وهذه الحيرة نفسها خطوة أولية نحو
الشعور بالحياة والتأمل فيها والوصول الى فهمها.

وهو يرى في العقيدة والايان ملجأ حصينا من الشك والتورط
فيه. اذ العقيدة النيرة الحية البعيدة عن التعصب. هي التي تدفعك
الى العمل وحب الغير وتجعلك طفلا فرحا سعيدا وهي التي تجعلك
هادئا قريير العين بالحياة.

قد تقول ان هذا شيء تعرفه. وانه لم يأتك بجديد. ولكن
تولستوى لم يحاول ان يبهرك براء غريبة تضعها بين آلاف الآراء،
ولم يحاول أن يتحفك بطريف الأفكار. بل أراد أن يرشدك الى
منهاج السعادة في الحياة وهو منهاج عملي جربه بنفسه فنجح فيه
نجاحا باهرا.

أحب جارك. أحب لكل انسان ما تحبه لنفسك؛ اعمل لغيرك،
ففي كل هذا سعادتك.

لا تقل ان غيرك لا يعمل لهذا، فليس معنى تقصيره أن تقصر
أنت، ولا تسأل لماذا تكون أنت الوحيد الذي يخطط لنفسه هذا الطريق،
بل اعتقد ان الناس لابد صائرون اليه، وأن لا مزية في أنهم
منتهمون الى اتباعه. فلماذا لا توفر على نفسك شقاء؟ ولماذا تضن على
نفسك بالطمأنينة والسعادة؟

ذلك جانب من فلسفة تولستوى. وهناك جانب آخر عاج
الرجل فيه المجتمع ومساوئه، وموعدا به عدد قادم.

شهادي عطيه الشافعي

خريج قسم الاجتماع والفلسفة من الجامعة المصرية